الإعلام وثقافة الوسطية

الأستاذ/ عادل الماجد

ملخص الورقة:

يتحدث الباحث عن أسلوب أمثل لبناء الوسطية في المجتمع، من خـلال الإعـلام، ويرى الباحث أن هناك خللاً كبيراً في بناء الوسطية.

وتركز الورقة على جوانب التأثير الذي يمثل الهدف الرئيس في الإعلام.

وتشرح كيفية الوصول إلى حالة من الشمول والثبات في صناعة (الوسطية).

وتضع أسلوباً لمحاصرة التطرف وإضعاف تأثيره في المجتمع ويفرق الباحث بـين التطرف والعنف.

بسم ا الرحمن الرحيم

الحمد والصلاة والسلام على رسول ا صلى ا عليه وسلم وبعد:

فإن الحديث عن الوسطية وثقافة الوسط هو حديث عن موضوع لا عدو له ومن هنا تأتي صعوبة وامتناع هذا المصطلح، وقد حاولت كثيراً أن أقرأ لمن يرفض الوسـطية لأطلع على رأيه، فلم أجد لها عدواً، وكل من تكلم عن الوسطية بالغ في الثناء عليهـا؛ فهذا الذي يكفّر جميع حكام المسلمين والوزراء في كتابه يدعو للوسطية وعدم التطرف بتكفير المجتمع كله، ويحذر من التطرف، وآخـر يـرى أن الإسـلام والمعاصـرة لا يجتمعان، وأن الإسلام جاء لحل مشكلات محددة لزمان ومكان، ولا ينسى هو الآخر أن يحذر من التطرف ويدعو للوسطية كما يقول: (ومن التطرف ما يدعو له بعض المثقفين في المهجر من وجوب إغلاق دور العبادة (المساجد)، ومنع الزواج غير القانوني ، وأنا أدعو للوسطية في حرية إتباع أي دين ، ولو أقام الزواج بطقوس معينة).

إن الإعلام إن دعا إلى الوسطية فهو يدعو لقضية لا ينازع فيها أحداً لذا فـإن دور الإعلام المفترض هو تجلية مفهوم (ثقافة الوسط) وصناعة بيئة هـذه الوسـطية، لأن الوسطية مصطلح يكمن غموضه في وضوحه.

يقول أحد المشاركين في ندوة (الوسطية بين التنظير والتطبيق) الذي عقد في المنامة من أعمال منتدى الفكر العربي: (أشار العديدون من المشاركين أثناء المـداولات إلـى أنهم وصلوا إلى البحرين وهم يعتقدون أن الوسطية مفهوم واضح تماماً، وأنهم يفهمونه، وأن مهمة المؤتمر الأساسية هي البحث عن أسباب غيـاب الوسـطية عـن مواقـف ومسلكيات البعض إلا إن أغلبية المشاركين، وبعد يـومين مـن المـداولات وأحيانـاً المشادات الكلامية، خرجت وقد تبخر ما لديها من قناعات تتعلق بمفهوم الوسـطية، إذ ساهمت الآراء المتعددة التي تشعبت كثيراً في إحـلال الغمـوض ، فكـان الوضـوح والارتباك محل الثقة (صحيفة البيان).

ويقول د. محمد ربيع: (ورأى أغلبية المشاركين (الوسطية) بمثابـة منـارة تهـدي السفن الضالة حين الوصول إلى البحرين، وتركت البحرين المضياف، وهي على قناعه بأن الوسطية ليست إلا سفينة تائهة في خضم بحر كبير تعصف به أمواج عاتية).

فإذا التبس المفهوم على نخبة المثقفين وأحدث فيما بينهم صراعاً ومشاداتٍ، فكيـف هو حال الجمهور العربي في هذا الوقت الذي تباينت فيه الآراء، وأصبح ما تراه تطرفاً شديداً يراه آخر وسطيةً محمودة ؟

إن نجاح الإعلام في بناء ثقافة الوسط هو في صناعة المفهوم، ومحاولـة وضـع أسس وقنوات تؤدي إلى (الوسطية) على المستوى الفردي والجماعي، وعلى المـستوى السياسي والثقافي، وفي ثقافة النخبة وفي وعي الجمهور.

إن من أسباب ارتباك المفهوم هذا التداخل الواضح بين مفهوم الوسـطية ومفـاهيم أخرى ، فخذ على سبيل المثال: مفهوم الوسط والمنتصف، فهل الوسط هو المنتـصف لأن النصف مفهوم رياضي هندسي يعني حيزاً يتساوى ما قبله بما بعده، وعلـى هـذا تكون الوسطية في الأخلاق هي حالة في النصف ليست بأحسن الخلاق ولا رديئه، وكذا هي (الوسطية في الاقتصاد، إذا إنها حالة تجعل المشروع الاقتـصادي لا رابحـاً ولا خاسراً لذلك ينكر د. محمد ربيع الوسطية في غير الدين والمجتمع كما يقول: إن مـن الخطأ أن يكون الإنسان وسطياً فيما يتعلق في الاقتصاد مثلاً).

ويذكر آخر أنه لا يمكن أن ندعو إلى الوسطية في الصدق، فتكـون صـادقاً حينـاً وكاذباً حيناً آخر.

وسبب التباس الفهم في تفسير الوسطية بالمنتصف ، لأن كثيراً من خصال الخيـر هي بين خصلتين من الشر ، كالكرم بين البخل والإسـراف والـشجاعة بـين الجـبن والتهور ، وحتى الخصال الخلقية : فالطويل جداً والقصير جداً وبينهما الوسط.

إن مفهوم الوسطية هي الخيرية وهي محاسن الأمـور ، {وكـذلك جعلنـاكم أمـة وسطاً}يعني أمة الخيرية ، وقولُه تعالى: {قال أوسطهم} يعني خيرهم وأعقلهم ، والرسل من أوسط أقوامهم نسباً: أي خيرهم وأفضلهم نسباً.

إن على الإعلام تأكيد أن (الوسطية) هي الخيرية دائماً، وأن الوسطية في الأخـلاق مثلاً هي خير الأخلاق.

والخلط الآخر بين التطرف والعنف، والمراد بهما، وموقفيهما مـن الوسـطية، إن العنف ممارسة عملية يمكن القضاء عليها أمنياً أو فكرياً ، بينما التطرف أسـلوب فـي التفكير يجب أن يحاصر قدر الإمكان، لأن التطرف صفة ثابتة عبر الزمان والمكان في كل مجتمع وكل حضارة.

كما يقول: د. محمد عمارة في كتاب (الغلو الديني واللاديني): (وكـذلك يجـب ألا نطمح إلى خلو مجتمعاتنا من أية آثار لمقولات الغلو الديني التي تم رصدها، وإنما يجب أن نطمح إلى تحجيم هذه الظاهرة ومن ثم تهميشها كي لا تكون مركز، جذب لـشبابنا ولا عائقاً أمام المشروع الإسلامي الوسطي للتقدم والنهوض). فالصراع الحقيقي حـول (القضاء على العنف وتحجيم التطرف).

ويمكن تحجيم التطرف بتوسيع دائرة (الوسطية)، لأن هناك محاولات متطرفة فـي تعريف (الوسطية) حتى أصبحت الوسطية عملية صعبة بـسبب التعنـت فـي وضـع حـدود لها، فلإعلام معني بأن يجعل من الوسطية ممارسةً سهلةً وفق أطـر مفتوحـة وبأبعاد كثيرة، وأن يجعل من التطرف مصطلحاً ينسجم مع اسمه ولا يتجـاوز حـدود أطرافه.

والوسطية أيضاً ليست إجماعاً، إنها سعة تحتمل التناقض والخلاف، وحتى الصراع، إذ إنه لا يمكن أن نقول إن كل صراع فيه أطراف متطرفة.

إن (الوسطية) تختلف باختلاف المجتمعات وتنوعهـا ، فالوسـطية فـي المجتمـع السعودي لا تتطابق مع الوسطية في المجتمع الفرنسي مثلاً، والوسـطية فـي التيـار الإسلامي ليس هي ذاتها الوسطية في التيار القومي أو التغريبي، فالإعلام حينما يصحح مفاهيم الوسطية لابد أن يدرس الجمهور المخاطب، وكيف يفهم الوسـطية ومـا هـي الوسطية المرادة منه.

والإعلام ينبغي إن يدرك أن الوسطية هي تغيير لعادات وسلوك وأفكار، تتم بمرحلة بطيئة، ويكون نجاح التغيير نسبياً في المجتمع المتطرف. إن أثر الإعلام في جزء مـن

عاداته وأفكاره فهو نجاح، وإن بقي في حيز التطرف، ومن التعنت أن نقـيس نجـاح الإعلام في بناء الوسطية في تغيير الجميع نحو الوسطية بأسلوب واحد ورؤيـة عامـة وفي وقت قصير.

إن الإعلام الناجح عندما يؤدي رسالته بشكل صحيح، فإنه يدرس المجتمع المخاطب ويعرف بيئته كي ينطلق من مفردات المجتمع ومن قواسمه المشتركة، والإعـلام هـو (الرسالة) إذ إن القنوات الفضائية والصحف والمجلات والشريط ومواقع الإنترنت هي وسائل إعلامية وليست إعلاماً. فالحملة الإعلامية لإقناع الجمهور بالوسطية لا تكـون بضخ أكبر معلومات عن الوسطية وأكبر قدر ممكن من شـتم التطـرف والمتطـرفين والإرهاب والإرهابيين إنما الحملة هي رسائل مدروسة ومعدة من قبـل متخصـصين يسعون نحو أهداف معلومة المراحل، وينظرون إلى ظاهرة العنف والتطرف والإرهاب نظرةً شمولية.

ومن هنا فإن غير المتخصص تستغرقه زاوية واحدة ، مما يؤثر سلباً على زوايـا أخرى وينعكس سلباً على معالجة ظاهرة العنف والإرهاب، بل ربما نفع الإرهاب وهو لا يعلم ، لذا لابد من أن يجري الحديث إعلامياً عن هذا الموضوع الحساس بالتحليـل والنقد والتصويب والتخطئة على ألسنة متخصصين في هذه الشؤون، ويقتصر تعليـق غير المتخصصين على الإنكار والشجب فقط، وهناك أمثلة كثيرة على خدمات مجانيـة للإرهاب والتطرف قام بها إعلاميون غير متخصصين.

ومن الخطأ أيضاً ربط الفكر الإرهابي بمفكرين متميزين، وإن خالفناهم ، فأي هدية أعظم من أن يهدى التطرف والإرهاب أرضية فكرية حينما يعزا إلى فكر سيد قطـب وفكر أبي الأعلى المودودي، وأحياناً فكر عالمي في مواجهة مؤسسات الدولة، كـالفكر الفوضوي أو غيره إن هذا الربط يوحي أن الإرهاب والتطرف له قراءة فكرية فاحصة، وينطلق من أسس مرجعية، بينما واقع الإرهاب هو شباب ضعيف التعليم صغير الـسن لو قرأ صفحة في كتاب (معالم في الطريق) أو غيره لما استطاع أن ينطـق كلماتهـا بشكل صحيح فضلاً عن فهمها أو تشربها والعمل بموجبها.

وعلى مستوى الحملات الإعلامية ضد التطرف والإرهاب هناك ممارسات كثيرة لا تخدم القضية، وأحياناً تؤثر بنتائج عكسية.

إن الإغراق في مواجهة نوع من التطرف دون غيره، يجري فـي نطـاق خدمـة تطرف آخر لمحاصرة الأول.

فعندما كانت المواجهة ضد الشيوعية كان الحديث عن الجهاد في أفغانستان بطريقة غير متزنة، ويتحدث عن الموقف من الشيوعي بطريقة غيـر شـرعية، ممـا جعـل التطرف يتوالد فيما بيننا ونسكت عنه على الرغم من علمنا به، وذلك بسبب معركتنـا مع الشيوعية والاتحاد السوفيتي سابقاً على وجه التحديد.

واليوم يضخ الإعلام حرباً على الإرهاب والتطرف، ولكنه لا يتوازن مرة أخـرى، فهو يلوذ بالصمت حيال الانحلال الأخلاقي والتطرف الفكري في التبعية للغرب، بـل يحاول أن يطمس مفهوم القوة والحرب والعدو، والتي تشكل أصولاً في أي حضارة أو دولة، إذ تحتاج الأمة لروح التحدي والمقاومة ولكن وفق أسس ونظام وقانون.

إن الفكر الإعلامي الناضج لا تستغرقه اللحظة الزمانية وإنما يعالج القضايا بتوازن بأبعاد زمانية ومكانية مدروسة.

ويقتحم الإعلام متطرفون يستغلون الوسطية لبث تطرفهم مستفيدين من حالة عـدم الاتزان الإعلامية .

إن المتطرف الإسلامي والقومي والشعوبي والعلماني هو متطرف لا يمكن أن يسهم في صناعة الوسطية، ولا مصلحة البتة في استخدام الإعلام لرجل متطرف سواء كـان ذلك عبر مقالاته أو أقواله، لكي نأتي به للرد على تطرف آخر، معطين بذلك للجمهور مبرراً للتطرف.

إن تعزيز أحد الطرفين هو تمكين وترسيخ للآخر، وأقوى سلاح ضد التطرف هـو الوسطية إن وجود (القاعدة) مثلاً وعملياتها المشينة هي أكبر إعانة لممارسـة الفكـر المسيحي المتصهين أجندته في المنطقة، وكذلك تزداد فاعلية القاعدة ومن نحا نحوهـا فكرياً وعسكرياً كلما ازداد تعصب الحزب المتصهين وبالغ في ممارسة أجندته.

فمن الخطأ الإعلامي الكبير في بناء الوسطية أن يفتح المجال لمتطرف لكي ينـتقم من خصمه باسم (الوسطية).

ومما يضر بالوسطية أيضاً عرضها بطريقة بدائية باهتـه، إذ تجـد أن التطـرف يعرض فكره بالبراهين والدلائل، وتجد الإعلام لا يعتني بأصـول النقـاش الـصحيح، بدعوى أنه إعلام ينتمي للدولة أو يعبر عن عموم المجتمع أو أن المتطرف والتطـرف لا يستحق جهداً، وأن الوسطية هي الحق والعدل.

إن الإعلام لا يؤثر حتى يأخذ معطيات التطرف بكل جد واهتمام.و(الوسطية) أحوج ما تكون أن تعرض بوسطية واعتدال ومنطقية، وأن تكون الرسالة غيـر متـوترة ولا منحازة، وألا يعالج التطرف بتطرف مثله.

وإن بناء (الوسطية) في المجتمع هو بناء أفكار ورؤى ومتى ما صار الإعلام يمثل الوسطية بذوات ويخدمهم فإن فكر (الوسطية) يتجسد بذوات فقط ويصبح غير مـؤثر، وكذلك المعالجة للتطرف والعنف يجب أن تنصب على الأفكار لا الذوات.

إن استخدام الذوات في الوسطية هو تمثيل فقط على الممارسة وليس تسويقاً شخصياً لأحد، فالموقف من الأشخاص متذبذب بينما الأفكار معالمها واضحة.

والتحدي الكبير في رأيي للإعلام هو ارتباط (الوسطية) بمتغيرات التاريخ والسياسة والفكر ، بلا شك أن الرأي في (الجهاد) اليوم ليس هو ذات الرأي خلال الثمانينات على المستوى الفكري والسياسي والاجتماعي وعلى مستوى الفتوى أيضاً.

فخلال الخمسينيات والستينيات مثلاً: ما موقف الإعلام ممن يرى حق (إسرائيل) في الوجود وما موقف الإعلام اليوم ممن يرى (فلسطين) من البحر إلى النهـر. وقـضايا كثيرة جداً.

إن الإعلام بحاجة إلى فكر قوي وصريح يناقش المتغيرات بشكل شفاف يبني فـي الأمة مفهوم (المقاصد، والمصالح والمفاسد ، والممكن وغير الممكن).

إن أفضل علاج لحساسية هذه المصطلحات هو اقتحامها وعلاجها بطريقـة شـفافة وتقبل الرأي المعارض فيها بأريحية عالية.

يقول المفكر الفرنسي (اسبنيوزا) (الحقيقة ما قبل جبال البيرينيه تعـد خطـأ فيمـا بعدها).

(الوسطية) ليست منهجية القطار والسكة، أي ليست أفكاراً على خـط واضـح ثـم تنطلق، إنها عملية مستمرة ومتتابعة تحتاج إلى تعزيز دائم، إنها الصراط المستقيم الذي أُمرنا أن ندعو ا أن يهدينا إليه عشرات المرات يومياً، والدعاء الدائم بـالتوفيق لمـا اختلف فيه، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا أتباعه، إنها جهود متوالية ودائمة تحث علـى مسالك الوسطية وتقلل من حجم التطرف يوماً بعد يوم.

ونختم المبحث بأن من يحمل لواء الوسطية في الإعلام هم أشـخاص، لـذا يجـب اختيارهم بعناية لكي يمثلون الوسطية بسيرتهم وطبيعتهم، وليس من المناسب أبـداً أن تسند هذه الملفات المهمة لمن يعرف بالخبث والسوء، أو أن تاريخه مليء بالـصفحات السوداء.

إن كثيراً ممن أسلم من الصحابة يقول: نظرت إلى وجه رسول ا صلى ا عليـه وسلم فعلمت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان عليه الصلاة والسلام يعتنـي بالرسـل للملوك والقبائل، لأن الرسالة والرسل فيهما تداخل كبير.

إن (الوسطية) مصطلح جذاب وهو حق وعدل ومن الظلم أن نضع بين يـدي هـذا الحق رسلاً لا تمثله .

وعندما يتمثل الإعلام (الوسطية) بصدق وإخلاص وعمل دءوب، فإنه سيؤثر قطعاً، وسيكون شاهداً على المجتمع، لأن الوسطية الصادقة مرتبطةٌ بالشهادة المؤثرة .

{وكذلك جعلناكم أمة **وسطاً** لتكونوا **شهداء** على الناس}.